رياضة « الطبلة » في الشعر الأندلسي في عصر بني الأحمر

الدكتور صلاح جرّار / الجامعة الأردنية

مقدمـــة :

دعاني إلى إعداد هذه الدراسة داعيان : أولهما : الكشف عن رياضة أندلسية شاعت في غرناطة في عصر بني الأحمر (٦٣٥ هـ - ٨٩٧ هـ/١٢٣٨ م - ١٤٩٢ م) لم يرد لها وصفٌ إلا في عددٍ من قصائد الشعراء الأندلسيين ، ولم يصفها أيٌّ من المؤرخين القدماء ، ولم يدرُسْها أيٌّ من الدارسين المحدثين .

وثانيهما : أن الدارسين الذين درسوا الشعر في زمن بني الأحمر ، أو درسوا شعر أي من الشعراء الذين وصفوا هذه الرياضة ، تجنبوا التعرّض للأبيات التي تصف تلك الرياضة ، لأن أحداً من هؤلاء الدارسين لا يستطيع أن يعرف صفات تلك الرياضة من خلال قصيدة بمفردها ، إذ لابد من جمع مختلف القصائد التي وصفت الرياضة وإخضاعها للمقارنة من أجل استجلاء صورة هذه الرياضة ، وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة . وأما من استوقفته هذه الرياضة من الباحثين فقد وقف حائراً بين يديها ، كما فعل إميليوغارسيا غومس في كتابه « مع شعراء الأندلس والمتنبي »[1] حين قال « إن هذه اللعبة غامضة » ؛ وكما فعل محقق « أزهار الرياض » في تعريفه « الطبلة » بأنها بعض آلات الحرب[2] ، معتمداً في ذلك على معجم دوزي .

---

١ ـ غارسيا غومس ، إميليو ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، تعريب د . الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

٢ ـ المقّري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م) ، أزهار الرياض في أخبار عياض (٥ ج) ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات ، الرباط ، ١٣٩٨ م هـ / ١٩٧٨ م ، (٢/ ٦٠ الحاشية) .

وقد عثرتُ على ثماني مقطوعات شعرية متفرّقة في وصف هذه الرياضة ، وردت كل مقطوعة منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف الاحتفالات التي كان يقيمها ملوك بني الأحمر في المناسبات الوطنية والاجتماعية والدينية المختلفة في غرناطة ، وهذه القصائد لخمسة من شعراء غرناطة في عصر بني الأحمر . وقد جعلتُ هذه المقطوعات الثماني في ملحق في آخر هذه الدراسة ، وجعلتُ لكل مقطوعة رقماً ، وأشرتُ في أثناء الدراسة إلى كل مقطوعة برقمها .

وقد اختلفـــت المصادر الأدبية في اسم هذه الرياضة فبعضهم أطلق عليها اسم « الطّلْبة » وبعضهم سماها « الطَّبْلة » بتقديم الباء على اللام ، وقد آثرتُ إرجاء البحث في اسمها إلى حين الانتهاء من التعرف على ملامحها وأصولها ومبادئها كما وردت في المقطوعات المذكورة ، لأن معرفة مبادئ هذه الرياضة تساعد على معرفة سبب تسميتها . وتتناول هذه الدراسة ، فضلاً عن ذلك صلة هذه الرياضة بغيرها من أنواع الرياضة السابقة واللاحقة .

مبادئ اللعب :

العناصر الأساسية في هذه الرياضة هي : الهدف ، والرامي ، ومايُقْذَف به الهدف . ويستطيع الباحث من خلال تأمل المقطوعات الشعرية التي تصف هذه الرياضة ومقارنتها بعضها ببعض ، أن يستخلص صورة للهدف وطريقة نصبه في الهواء ، وصفات العصيّ أو السهام التي كان يُقْذَفُ بها ، وهيئة اللاعب الذي كان يقذف الهدف بالعصيّ ، وشروط الفوز والخسارة ، إلى غير ذلك مما يتصل بمبادئ اللعب وأصوله .

الهـــدف :

يشكل الهدف أساس هذه الرياضة ، وتتجه أكثر الأبيات التي تصف هذه الرياضة إلى وصف الهدف ، فمثلما كان هذا الهدف محط أنظار الرماة والمتفرجين

ومحط رحال العصيّ التي تُقْذَفُ نحوه ، فكذلك نال النصيب الأوفر من اهتمام الشعراء الذين وصفوا هذه اللعبة ؛ فأشاروا إلى المادة التي صُنع منها هذا الهدف ، وطريقة إعداده ، ثم الصورة التي يصبح عليها بعد إطلاقه في الفضاء .

وتتفق القصائد التي تصف هذا الهدف ، على أنه هدفٌ خشبيّ يُجعل في مكان مرتفع جداً من الفضاء ، وهذا ما نصّ عليه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة ونقله عنه المقري في نفح الطيب ، حيث يقول ابن الخطيب في التقديم لإحدى قصائده : « وقولي في امتداح سلطاني لما احتفل لإعذار ولده ، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجو المسمى بالطبلة ... »[1] .

ويشير ابن الخطيب إلى أنها مصنوعة من الخشب حيث يقول[2] :

وطاعنةٍ نحْرَ السُّكاكِ أعانها ... على الكونِ عِرْقٌ واشجٌ ولحىً سَبْطُ

(والسُّكاك : الجوّ ، والعرق الواشج : المتداخلُ المتشابك الملتفّ ، والسَّبْط : نقيض الجعد)[3] .

فالهدف ، على ذلك ، مأخوذٌ من الشجر من ساقٍ قوية ملتفّة ذات لحاء أملس ، ليساعدها ذلك على الانطلاق في الفضاء عند إرسالها فيه .

---

١ ــ لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) ، الإحاطة في أخبار غرناطة (٤ ج) ، حققه محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ـ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ٤٧٩/٤ ؛ المقّري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٨ ج) ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ٤٥٩/٦ .

٢ ــ انظر المقطوعة رقم (١) .

٣ ــ ابن منظور : لسان العرب .

ويشير ابن زمرك الصريحيّ إلى هذا الأصل الخشبيّ للهدف ، حيث يقول[1] :

وقد أُرْضعَتْ ثَدْيَ الغمائم قبلها بحجر رياض كنَّ فيه نواشيا

فلمّا أُبينَتْ عن قرارة أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا

ويقول في قصيدة أخرى مشيراً إلى صلة الرحم بين الهدف والسهام التي تطلق عليه[2] :

تراوغها طوْراً وطوْراً تضيفها فسامٍ لأعلى مرتقاها ونازلُ

وبالأمس كانت بعض أغصان دوحها فنقّلها عنها على الرغم ناقِلُ

فحنَّت إلى أوطانها وتسابقت تعاود مسراها بها وتواصِلُ

ويقول ابن زمرك في المعنى ذاته في مخمسةٍ له[3] :

وقد قذفَتْها للعصيّ حواصِبُ قد انتشرَتْ في الجوّ منها ذوائبُ

تزاوَرَ منها في الفضاء حبائبُ فبينهما من قَبْل ذاكَ مَناسِبُ

لأنّهما في الروض قبلُ تولّدا

بناتٌ لأُمٍ قد حيينَ برَوْحها دعاها الهوى من بعد كتْم لبَوْحِها

فأقلامها تهوي لخطٍ بلَوْحها فبالأمس كانت بعْضَ أغصانِ دوْحِها

فعادت إليها اليوم من بَعْدُ عُوَّدا

---

١ ـ المقطوعة رقم (٣) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٥) .

وهذه الصلة بين الهدف الخشبي وبين السهام التي تطلق عليه ، كما يبينها الشعراء تؤكد أن الهدف كان يؤخذ من ساق الشجرة بينما كانت السهام تؤخذ من الفروع الصغيرة ، فالعلاقة بين الهدف والسهام علاقة الأصل بالفرع وعلاقة الأم بأبنائها ، فلذلك صوّر الشعراء إقبال السهام على الهدف بأنه كإقبال الأبناء على أمهم ، ولذلك يصف ابن فركون هذه العلاقة بقوله[1] :

تحـنُّ إليهـــا الذابـلات فترتمـــي فروعـاً يرينا الأصل كيف اجتذابُها

وبعد أن يُستْأصَلُ الهدفُ من سيقان الشجر محكمة الالتفاف والتماسك ملساء اللحاء ، كانت تجعل على شكل أسطوانة ذات طول مناسب ، فيُدَبَّبُ رأسُها ليساعدها على الانطلاق عالياً في الفضاء ، وكانت تجوَّفُ بحيث تبقى كالأسطوانة الفارغة أو كالطبلة ، وكانت الغاية من تجويفها أولاً لتخفَّ حركتها في الفضاء فتنطلق سريعاً ، وثانياً لكي تحطّ السهامُ في جوفها عندما تصيبها . ولعلّ وصف لسان الدين بن الخطيب لهذا الهدف بقوله « وطاعنةٍ نحر السُّكاك »[2] يشير إلى كونها مدببة الرأس ، أما تجويفها فتدلُّ عليه أبياتٌ كثيرة منها قول لسان الدين بن الخطيب[3] :

تلقَّـفُ حيّات العصيّ إذا هـــوت فثعبانُهـــا لا يستتمُّ لـــه ســـرْطُ

ولا يستطيع هذا الهدف أن يتلقف العصيّ الصغيرة لولا أنه مجّوف ومفتوحٌ من بعض جوانبه ، ولعلنا نستطيع من هذا البيت ومن خلال العلاقة النسبية بين الثعبان والحيات الصغيرة التي يبتلعها أو يسرطها أن نتصور العلاقة النسبية في حجم الهدف الخشبي والعصيّ (السهام) التي تطلق عليه ، وأطوالها .

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٦) .

٢ ـ المقطوعة رقم (١) .

٣ ـ المقطوعة رقم (١) .

ويستطيع الدارس أن يتصور حجم ذلك الهدف قياساً على ما يستطيع تجويفه من استيعاب للعصي التي تطلق عليه ، ويظهر مدى استيعاب الهدف للعصي من خلال البيت السابق :

تلقَّفُ حيّات العصيّ إذا هوت فثعبانُها لا يستتمُّ له سَرْطُ

ومعنى ذلك أنه مهما دخل إلى جوف ذلك الهدف من العصي فإنه لا يكاد يمتلئ(*) ويقول ابن زمرك(١) :

فخفَّتْ إليها الذابلاتُ كأنها طيورٌ إلى وكْرٍ أطلْنَ تهاويا

حكت شبهاً للنحل والنحلُ حوله عصيٌّ إلى مثواه تهوي عواليا

فهو يشبّه الهدف تارة بوكر الطيور الذي تُتابعُ الطيورُ الدخولَ فيه ، وتارة بخليّة النحل ، والعصيّ حوله كالنحل حول خليّته .

ويقول ابن زمرك من مقطوعة أخرى مصوراً دخول العصيّ في الهدف(٢) :

وتنتابها هيفُ العصيّ كأنها سهامٌ وعاها للرميّة نابلُ

تراوغها طوراً وطوراً تضيفُها فسامٍ لأعلى مرتقاها ونازلُ

ويقول ابن فركون يصف الهدف وهو يتلقف العصّي (٣) :

كأن طيوراً في ذرى الجو حوَّمَتْ وثابَتْ لأوكارٍ بهن وثابها

تقيم إذا لاقى الأمانَ ارتياعها ورتبما عنها ثناها ارتيابُها

---

* ربما كان القصد أيضاً أن السهام تنغرس في جسد الهدف دون أن تدخل فيه . فتبدو كالثعبان الذي يحاول ابتلاع الأفاعي فلا يستتم له ذلك .

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٦) .

أما فتحات ذلك التجويف فيخيل لي أنها كانت جانبية ، وهذا ينسجم مع تشبيه الهدف بوكر الطيور وخلّية النحل والثعبان ، ويساعد هذا أيضاً على بقاء العصيّ أو السهام داخل الهـدف في حالة إصابتـه ، فأما إن كانت الفتحة في طـرف الأسطوانة الخشبية لما تمكن الرماة من إطلاق سهامهم عليه ، ولما استقرت داخل الهدف بل ترجع إلى الأرض بفعل الجاذبية . ويستفاد من تصوير الشعراء للهدف أن هذه الفتحات صغيرة كالثقوب .

ويفهم من المقطوعات التي بين أيدينا أنّ الهدفَ كان يُدبّبُ من رأسه وتثقب حول الرأس المدبّب ثقوبٌ تجعله أشبه بالبرج الصاعد إلى السماء ، ويصفُ ابن زمرك هذا الرأس المدبّب بقوله[1] :

وحصـنٍ منيعٍ في ذراه قـد ارتقى ... فأبعـد في الجـوّ الفضاءِ المراقيـا
كأنّ بروج الأفق غارت وقد رأت ... بـروج قصـور شِدْتهنّ سـواميا
فأنشـأتَ بُرْجـاً صاعـداً متنـزلاً ... يكـون رسـولاً بينهـنّ مُداريـا

ويقول من مقطوعة أخرى[2] :

وبـرج منيف في ذراها قـد ارتقى ... لتُرْفَـعَ منـه للبـروج الرسـائلُ

ويقول من مقطوعة ثالثة[3] :

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .
٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .
٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٥) .

ويا رُبَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى أنارَتْ بُروجَ الأفْق في مظهر العُلا

بروج قصور شِدتُها متطوّلا فأنشأتَ برجاً صاعداً متنزلا

يكون رسولاً بينها متردّدا

ولعلّ جعل الهدف على صورة البرج كان المقصود منه أن ينسجم وبعض الأهداف المتوخاة من هذه الرياضة ، وهي التدريبات العسكرية ، لأنّ إصابة هذا الهدف وهو على شكل البرج يسهل على الفرسان إصابة أبراج الأعداء في أثناء الغزوات والمعارك[1] .

ويظهر أن الثقوب التي كانت تحيط برأس الهدف كانت مصدراً لذلك الزمر الذي كان ينبعث من الهدف أثناء صعوده في الفضاء ، ولذلك يصف ابن زمرك هذا الزمر بقوله[2] :

فلمّا أُبينَتْ عن قرارةِ أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا

وعدَّتْ لقاءَ السُّحْبِ عيداً وموسماً لذاك اغتدت بالزمر تلهي الغواديا

فأضحكت البرقَ الطروبَ خلالها وباتَ لأكواس الدراري مُعاطيا

---

١ – يصف الشعراء هذا البرج وكأنه ليس من أصل الهدف ، بل يضاف إليه بعد ذلك ، ولا أستبعد أن يركب البرج على الهدف بعد إعداده للإطلاق .

٢ – انظر المقطوعة رقم (٣) .

ويظهر أيضاً أنّ الهدف كان يضيّقُ من وسطه بحيث يبدو وكأنّ له خصراً . وقبل إطلاق الهدف إلى الفضاء كان يزيّن بالحلْي والقماش الملوّن ، فيجعل له عند رأسه شبه التاج ، وفي موضع العنق منه قماش ، وفي موضع الخصر منه وشاح ، وفي موضع القاعدة حليٌ كالخلخال ، وبذلك فإنه كيفما تقلّب في الجوّ نتيجة ضربات السهام فإنه يظل رائق المنظر ، وفي زينة الهدف يقول ابن زمرك[1] :

تطـوّر حالاتٍ أتى في ضروبهـا ... بأنـواع حَلْـي تسـتفزُّ الغوانـيا

فحِجْلٌ* برجْلَيْها ، وشاحٌ بخصرها ... وتـاجٌ إذا ما حـلَّ منهـا الأعاليـا

ويقول في مقطوعة أخرى[2] :

تطـور حـالاتٍ أتى في جميعهـا ... بأوضـاع حلْـي وصفُـهُ متغافـلُ

فتـاجٌ بأعلاهـا وشـاحٌ بخصـرها ... وفي السـاق منـه قد أديرت خلاخِلُ

ويقول في مقطع من مخمسةٍ له[3] :

وهـل هي إلا هالـةٌ حول بَدْرهـا ... يصـوغ لها حَلْيـاً يليـق بنحرهـا

تطـوّر أنواعـاً تشـيدُ بفخرهـا ... فحِجْـلٌ برجلَيْها وشاحٌ بخصرها

وتـاجٌ بأعلى رأسـها قـد تنضّـدا

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

* الحِجْل (بكسر الحاء وفتحها) : الخلخال (لسان العرب) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤)

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٥) .

وقد أشار الشاعر ابن فركون إلى الحلي والقماش الذي يزين به الهدف فقال[1]:

وصاعـــدة في الجو ألقت ذيولهـــا فـــراق بآفاق السحابِ انســحابها

إذا ثبتـــت راق العيـــونَ ثباتُهـــا أو انقلبـــت راقَ النفوسَ انقلابُهـــا

فهي إذن بهذا الحلي وهذه الزينة تظلّ جميلة رائقة المنظر سواءً أكانت بوضعها الطبيعي أم انقلبت نتيجة ضربات السهام ؛ وأن القماش يتبعها كالذيول .

إطلاق الهدف إلى الفضاء :

بعد أن كان الهدفُ يعدُّ على الصورة التي وصفناها ويُزَيَّن ، كان يجري إطلاقه إلى الفضاء بحضور السلطان والمتفرجين والفرسان الذين يستعدون لإطلاق سهامهم نحوه . غير أننا لم نقف في الشعر أو غيره على وصفٍ للطريقة أو الأداة التي كان يطلق بها الهدف ، أهو بالمنجنيق أم بآلة قذف خاصّة أم بالحبال والبكرات ، إلا أنّ ما تقدّمه المقطوعات التي بين أيدينا من وصفٍ لإطلاق الهدف يقتصر على وصف السرعة الخاطفة لانطلاقه وإلى شقّه لعنان السماء إلى الدرجة التي يكاد معها يغيب عن الأبصـــار ؛ فهذا ابن زمرك يصف انطلاق الهدف قائلاً[2] :

ومســـافرٍ في الجـوّ تحســـبُ أنّـــه يـــرقى إلى أوج الســماءِ بسُـــلَّم

ويقول[3] :

وطامحةٍ في الجوّ غير مطالةٍ يـــردُّ مداها الطـرفَ أحْسَرَ عانيـــا

تمـــدُّ الها لجـوزاء كـــفٌّ مصافـــح ويدنـــو لهـا بدْرُ السـماء مناجيـــا

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٦) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٢) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشهب بالعلا وأنْ جاوزَتْ منها المدى المتناهيا

فبيْنَ يديْ مثواكَ قامت لخدمةٍ ومَنْ خَدَم الأعلى استفادَ المعاليا

ويقول[1] :

وصاعدة في الجوّ ملءَ عنانها تُسامِتُ أعنانَ السَّما وتُطاولُ

طلعْتَ تحيّي البدْرَ منها بصعدةٍ عليها لواءُ الصُّبْح في الأفْق ماثِلُ

ويقول[2] :

وذاهبةٍ في الجوّ ملءَ عنانها وقد لفّعَتْها السُّحْبُ بُرْدَ عِنَانها

يفوتُ ارتدادَ الطرْف لمحُ عيانها وختّمت الجوزاء سَبْط بنانِها

وصاغت لها حليُ النجوم مقيّدا

أراها عمودُ الصُّبْح عُلْوَ المصاعِدِ وأوهمها قُرْبَ المدى المتباعِدِ

ويقول ابن فركون[3] :

وصاعدةٍ في الجوّ ألقَتْ ذيولها فراقَ بآفاقِ السحابِ أنسحابُها

ويقول ابن الحاجّ النميري[4] :

وقد صَعَدَتْ في الجوّ آيةُ طبلةٍ تحاكي عمود الفجر أسْفَرَ للسَّفْر

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٥) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٦) .

٤ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

ويظهر أنّه بعد انطلاق الهدف في الفضاء بهذه السرعة وهذا العلوّ الذي يصفه الشعراء ، تعود فتسبح في الفضاء بشكل منساب ، ولهذا وصفها عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب بقوله[1] :

وســـاقيةِ العمـــادِ إذا أطلّـــت إلـــى الأدواح تنســـابُ انســـيابا

ونجد إشارة في تخميس ابن زمرك قد تشير إلى ما يمكن أن يكون وسيلة لإطلاق الهدف إلى الفضاء ، إذ يقول في وصف الهدف[2] :

أراها عمـــودُ الصُّبْح عُلْوَ المصاعِـــدِ وأوهمهـا قـــرب المـــدى المتباعِـــدِ

ففاتتـــه سبقاً في مجـــال الرواعـــد .....

فهل توحي كلمة الرواعد في هذا السياق ، باستخدام المتفجرات أو الأسهم النارية في إطلاق الهدف ؟! لا سيما أنّ بني الأحمر قد عرفوا البارود واستخدموا المدافع منذ سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م في فتح حصن أشكر[3] .

أما انسياب الهدف في الفضاء بعد نفاد حدّة انطلاقه ، فربّما يكون مردّه إلى قطع القماش التي يزيّن بها ، والتي قد تشكل له ما يشبه المظلّة أو المنطاد ، ولذلك نجد لسان الدين بن الخطيب يشبه هذا الهدف بسفينة الفضاء حيث يقول في وصفها مخاطباً سلطانه[4] :

أزرْتَ بهـــا بحـــر الفضـــاءِ ســـفينةً على الجـوّ لا الجوديّ كان لها حطُّ

---

١ ــ انظر المقطوعة رقم (٨) .

٢ ــ انظر المقطوعة رقم (٥) .

٣ ــ لسان الدين بن الخطيب ، الكتيبـــة الكامنة في من لقيتـه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، أعدهـا وحققها : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٧٨ (من قصيدة للشاعر محمد بن شقرال) .

٤ ــ انظر مقطوعة رقم (١) .

ومما مر من الأبيات التي تصف صعود الهدف إلى الفضاء يتبين أنه كان يثبت أحياناً في الفضاء أي يمشي بطريقة مستقرة منسابة ، مما يدلّ على أن طريقة صناعة هذا الهدف مع الإضافات التي تلحق به كانت تمكنه من الاستقرار في الفضاء ، مما يسهل مهمة الرماة الذين يطلقون الأسهم نحوه .

الرُّماة / اللاعبون :

بعـــد أن كان الهدف يندفع إلى الفضـــاء كان الفرسان والرمـــاة تتبعه بالعصيّ (السهام) بكثرة ، بحيث تنهمر عليه العصيّ بكثافة تريد إصابته والدخول إلى جوفه ، فبعض العصيّ تخترقه وتنزل في جوفه من فتحاته المختلفة وبعضها يخطئه فيعود إلى الأرض ، وكلما رام ذلك الهدفُ هبوطاً حالت السهام دون الإذن له بذلك ، وأبقته قائماً في الجو . وفي ذلك يقول ابن زمرك في وصف الهدف عندما يحاول الهبوط إلى الأرض[1] :

رامَ اسْـتراقَ السَّمْعِ وهـو مُمَنَّـع ... فأصيبَ من قضب العصيّ بأسْهُم

رجمتْهُ من شهبِ النصال حواصبٌ ... لولا تعرّضُـهُ لهـــا لـــم يُرْجَـــمِ

ويقول[2] :

وقد أعْرَبَتْ بالرَّفْع عن طيبِ فخرِها ... متى نصبتهـــا في الفضاءِ العوامـــلُ

(والشاعر يستخدم هنا المصطلحات النحوية بقصد التورية في وصف ارتفاع الهدف في الجو وحيلولة السهام دون هبوطه إلى الأرض ، فالعوامل في هذا البيت هي من جهة العوامل النحوية ومن جهة أخرى السهام) .

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٢) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

ومثلما كانت بعض الرماة تصيب الهدف كان بعضها الآخر يخطئه ، يقول ابن زمرك في وصف السهام[1] :

فمـــن مثبتٍ منهـا الرميّة مـــدركٍ ومـــن طائشٍ في الجـوّ حلّقَ وانيـا

ويقول في وصف السهام[2] :

تراوغهـــا طوْراً وطـوْراً تضيفُهـا فســامٍ لأعلى مرتقاهـــا ونـــازلُ

ويفهم من المقطوعات التي تصف هذه اللعبة أن الرماة كان يطلقون الأسهم على الهدف وهم ركوبٌ على الخيل ، يدلُّ على ذلك قول عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب[3] :

تحـفُّ بهـا خيولُ القـــوم منّـــا فَتُرْسِـــلُ نحوهـــا الجُرْدَ العِرابـــا

ويقول ابن الحاج النميري[4] :

وقد جـالَ نقْعُ الخيل في جنباتهـــا كما جالَ في الأفكار معنىً من الشِعْرِ

ولكنّ ذلك لا ينفي وجود رماةٍ غير ركوب يطلقون العصيّ على الهدف ، غير أن ستعمال الخيل في هذه الرياضة قد يكون لكون هذه الرياضة لوناً من ألوان الفروسية، وربما للتمكن من إصابة الهدف الذي ينطلق بسرعة كبيرة لا تدركها إلا الخيل .

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٨) .

٤ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

العصيّ / السّهام :

أما العصيُّ أو السهام التي كان يطلقها الفرسان على الهدف ، فقد ورد وصفها في عدة أبيات ، ويستطيع الدارس من مجمل هذه الصفات أن يتبين أنها عصيّ رقيقة قصيرة ذات رأس معدني مدبب ؛ فمما قاله لسان الدين بن الخطيب في وصف الهدف وهو يتلقف العصيّ[1] :

تلقّــف حيّاتِ العصيّ إذا هــوت فثعبانهــا لا يســتتمُّ لــه ســرْط

ويفهم من هذه الصورة أن العصيّ قريبة الشبه بالحيّات الصغيرة من جهة الطول والسمك والرأس المدبّب ، وأن الهدف قريب الشبه بالثعبان الضخم الذي يبتلع الحيّات. وفي لسان العرب الثعبان : الحيّة الضخم الطويل ، الذكر خاصة ، وهو من أعظم الحيّات[2] . ويبدو أنّ الشاعر قد تمثل عصا سيّدنا موسى وهي تتلقف الأفاعي ، وذلك في قولــه تعالى ﴿ **وأوحَيْنا إلى موسى أنْ ألْق عصاكَ فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون** ﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتُم مُلْقون ، فألقوْا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزّة فرعونَ إنّا لنحنُ الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون** ﴾[4] .

ولعــل لهذا البيت صلــة بقول بعضهم في الرمــاح « خُلِقَتْ كالأراقم ، لثغــر الحلاقم »[5] .

---

١ ــ انظر المقطوعة رقم (١) .

٢ ــ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : ثعب .

٣ ــ الأعراف : آية (١١٧) .

٤ ــ الشعراء : آية (٤٣ ـ ٤٥) .

٥ ــ ابن هذيل ، عليّ بن عبدالرحمن الأندلسي (ق ٨ هـ / ق ١٤ م)، حلية الفرسان وشعار الشجعان تحقيق وتعليق : محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ ص ٢٠٢ .

ومما قاله ابن زمرك في وصف الهدف والعصيّ معاً[1] :

رام استراقَ السمْع وهو مُمَنَّعٌ فأُصيبَ من قُضُب العصيّ بأسْهُمِ

رجمته من شُهُبِ النصال حواصبٌ لولا تعرُّضُهُ لها لم يُرْجَمِ

وصفة العصيّ في البيت الأول أنها قضبان خشبية ولكنها مدببة الرأس كالأسهم ، وفي البيت الثاني أنها نصال ، والنصال لا تكون إلا معدنية ، والعصيُّ إذا كانت ذات نصال في رأسها ، فإنها تصبح رماحاً ، وشبّهها في البيت الثاني بالشهب لأن نصالها لامعة .

وفي موضع آخر يصف ابن زمرك هذه العصيّ بالذابلات حيث يقول[2] :

فخفّت إليها الذابلاتُ كأنّها طيورٌ إلى وكْر أطلْنَ تهاويا

والذابلاتُ جمع ذابل وهو الرمح ذو العصا الليّنة . وقد استعملت صفة الذبلات للعصيّ في أكثر من موضع من المقطوعات التي بين أيدينا[3] . وهي من أفضل صفات الرمح[4] .

وفي مقطوعة أخرى يصف ابن زمرك العصيّ بالصَّعْدة ، حيث يقول[5] :

طلعْتَ تحيّي البدْرَ منها بصعدةٍ عليها لواءُ الصُّبْح في الأُفُق ماثلُ

وقد أعرَبْت بالرفع عن طيبِ فخرها متى نصبتها في الفَضاء العوامِلُ

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٢) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

٣ ـ انظر المقطوعتين ٥ ، ٦ .

٤ ـ ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣ .

٥ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

والصعدة في البيت الأول هي عصا الرمح إذا نبتت مستوية ولم تحتج إلى تثقيف[1]. وفي البيت الثاني استخدم كلمة « عوامل » في وصف العصيّ التي أبقت على الهدف منتصباً في الجو ، والعوامل جمع عامل وهو رأس الرمح إلى قدْر الثلث منه[2].

ويقول ابن زمرك أيضاً[3] :

وتنتابها هيفُ العصيّ كأنّها سِهامٌ وعاها للرميّة نابلُ

ويفهم من هذا البيت ، في صفة تلك العصيّ أنها ليست من النوع الغليظ ، بل من النوع الرقيق وأنها رقيقة رقة السهام التي يقذفها الرماة بالقوس .

وعلى ذلك فان هذه العصيّ المستخدمة في قذف الهدف هي قضبان رشيقة رقيقة شبيهة بالسهام لها رؤوس مدببة تساعدها على اختراق الهدف . ولعلّ النوع المستخدم في هذه الرياضة هو ما يُعْرَف بالمزراق الذي « يُرمى به للطافة عصاه ، وقد يكون سنانه مربعاً لطيفاً لخرْق الدروع وشبه ذلك »[4] . وعندما يصف لسان الدين بن الخطيب سلاح الجمهور الغرناطي في كتابيه « الإحاطة » و « اللمحة البدرية » يقول : وسلاحُ جمهورهم العصيُّ الطويلة المثنّاةُ بعصيّ صغار ذوات عُرىً في أوساطها ، تدفَعُ بالأنامل عند قذفها ، تسمى بالأمداس »[5] . وربما تكون هنالك صلة بين هذه العصي الصغار والعصي المستخدمة في رياضة الطبلة .

---

١ ـ ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣ .

٢ ـ المصدر نفسه .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٤) .

٤ ـ ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٢ .

٥ ـ لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ١/١٣٦ ـ ١٣٧ ؛ اللمحة البدْرية في الدولة النصرية ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٩ .

ورقة هذه العصيّ وقصرها وحدّة رؤوسها ولمعانها هو الذي كان يساعدها على الانطلاق بسرعة البرق في الجوّ واختراق هدفها ، ولذلك يصفها ابن الحاج النميري بقوله[1] :

وأنحـــوْا عليهـا بالعصـــيّ كأنّهـــا بـــروقٌ ولكنْ بالبروق غَدَتْ تُزْري

ولكثافة هذه العصيّ حول الهدف ، ممّا يدلّ على كثرة اللاعبين ، فقد شبّهها الشعراء بتشبيهات عدة ، فتارة شبهوها بالطيور وتارة بالنحل وتارة بالأفاعي ، وهاهو عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب يشبهها بالفراش حول المصباح ، قائلاً[2] :

تحـــومُ بهـــا العصيُّ فـــراشَ ليـــل تـــــروم بســـــمعه منـــه اقترابـــا

الفوز والخسارة :

أما أسس الفوز والخسارة في هذه اللعبة ، فيمكنُ أن نستأنس في معرفتها بالتصور العام لهذه اللعبة فضلاً عن بعض الإشارات الواردة في مقطوعة ابن الحاج النميري[3] في وصف هذه اللعبة . ولعلّ إصابة الهدف بالسهام ودخولها في جوفه تعدّ مقياساً للفوز وأنّ عدم إصابة الهدف وابتعاد العصيّ عنه يعدُّ مقياساً لخسران جولة اللعب . ونجد ابن الحاجّ النميري في أبياته يقسم النتيجة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : إصابة الهدف وكسره ، وبكسره تدخل العصا إلى جوف الهدف ، ويعدّ ذلك فوزاً عظيماً ، فيقول في وصف الهدف[4] :

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٨) .

٣ ـ المقطوعة رقم (٧) .

٤ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

من الطبلات اللاءِ ما زال كسـرها لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبْـرِ

والثاني : إصابة الهدف دون كسره ودون دخول السهم في جوفه ، ويعدُّ ذلك نقطة لصالح الرامي ، لكنها ليست في المستوى الأول ، حيث يقول[1] :

وضاربُهـا يومَ الوفـودِ عقوقـه وإنْ كان لا يخفى يُعَـدُّ من البـر

وأما الثالث : فهو عدم كسر الهدف وعدم إصابته ، وفي هذه الحالة يبدو الهدف وكأنه يزري بالعصيّ التي ترمى عليه ، فيقول ابن الحاجّ[2] :

وأنحـوْا عليهـا بالعصـيّ كأنّهـا بروقٌ ولكنْ بالبروق غَدَتْ تُزْري

ولا شك أن إخفاق الرامي في إصابة الهدف هو دليلٌ على خسرانه الجولة ، فقد اتضح لنا من خلال الأوصاف المذكوة لهذه اللعبة أن السبيل إلى إبقاء الهدف سابحاً في الفضاء دون هبوطه على الأرض هو الاستمرار في إصابته بالسهام ، ومتى أخفقت السهام في إصابته هبط على الأرض ليعلن خسارة الرماة في تلك الجولة .

اسم هذه الرياضة :

اختلفت المصادر في اسم هذه الرياضة ، فبعضها تسميها « الطّلبة » ، وبعضها الآخر يسميها « الطّبلة » ؛ فقد أطلق إسماعيل بن يوسف بن الأحمر على الهدف الذي يقذَفُ بالعصيّ اسم « الطلبة » ، وذلك في تقديمه لقصيدة لسان الدين بن الخطيب[3] ، حيث يقول عن تلك القصيدة « وتشتمل على أوصاف من ذكر الحلبة التي أرسلها ،

---

١ ـ المصدر السابق نفسه .

٢ ـ المصدر السابق نفسه .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (١) .

والطلبة التي نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصيّ إليها ... »[1] وفي تقديمه لقصيدة ابن زمرك[2] يقول إسماعيل بن الأحمر إنّ الشاعر قد « أجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع »[3] .

أما لسان الدين بن الخطيب فإنه يطلق عليها اسم الطبلة ، وذلك في تقديمه لقصيدته السابقة[4] حيث يقول مشيراً إلى سلطانه إنه « استركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجوّ المسمى بالطبلة »[5] .

وفي رأيي أنّ الاسم الصحيح لها هو « الطّبْلة » وذلك لورودها في الشعر على هذه الصورة ، فقد ذكرها ابن الحاجّ النميري في مقطوعته حيث يقول[6] :

وقـــد صعدت في الجوّ آيـــة طبلةٍ ... إلـــــخ

ويقول[7] :

من الطبلات اللاء ما زال كسـرها لـدى البطل الأحمى يُعَدُّ من الجَبْرِ

ولعلّ سبب الخلط في التسمية هو تقارب صورة الاسمين ، واحتمال وقوع التصحيف عند إسماعيل بن يوسف بن الأحمر أو عند المقّري الذي نقل رواية إسماعيل بن الأحمر . وربما يكون سببُ الاختلاف في الاسم أنّ كلا الاسمين ينطبق

---

١ ـ نفسه ، وانظر : المقري ، نفح الطيب ٦/٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

٢ ـ انظر مقطوعة رقم (٢) .

٣ ـ المقري ، نفح الطيب ٧/١٨٤ ؛ أزهار الرياض ٢/٦٠ .

٤ ـ مقطوعة رقم (١) .

٥ ـ ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٧٩ .

٦ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

٧ ـ نفسه .

على هذه الرياضة ؛ فتسميتها بالطلبة منبثق من المعنى اللغوي للطلبة ، وهو : ما طلبتَهُ من شيء[1] . والهدفُ في هذه اللعبة كان يَطلبُ بالعصيّ . وأما تسميتها بالطبلة فمنبثقٌ من صفتها ، فهي كالطبلة في كونها قطعة خشبية مجوفة يخرج لها صوت كصوت الطبل حين تظفر بها العصيّ ، ولستُ استبعد شيوع الاسمين معاً بين أهل غرناطة ، وأن يكون أحدهما قد أصابه القلب فتقدم أحد الحرفين (الباء واللام) على الآخر ، كما يحدث كثيراً عند عوام الناس في كثير من الأسماء ، وشاع الاسمان على هذا النحو ، وساعد في شيوعهما مناسبة الاسمين للمسمى دون إخلال بصفته في الحالين .

التأثر والتأثير :

لم تتعرّض المصادر الأندلسية التي أُلفت قبل عصر بني الأحمر إلى هذه الرياضة، على الرغم من أن ألعاب الخيل والفروسية كانت الرياضة المفضلة لدى المسلمين في الأندلس وغيرها عبر عصور التاريخ الإسلامي لغايات الحرب ، كما هو الحال عند الرومان الذين وقف الأندلسيون على تراثهم في الأندلس ، فقد كانت الرياضة العسكرية تشكل جانباً أساسياً من برنامج تربية الشباب وكانت تتضمن تدريبه على الجري والوثب والسباحة ورمي الرمح والمبارزة ، وكانت الفرسان تتدرب على القوس والنشّاب والركوب[2] .

وفي رأيي أن هذه الرياضة عند الأندلسيين كانت نتيجة طبيعية لانتشار ألعاب الفروسية وتطورها والتعرف إلى قوانين الفروسية عند الاوروبيين ، والمتتبع لتاريخ

---

١ ـ لسان العرب ، مادة : طلب .

٢ ـ ديوبولد ب . ڤان دالين ، إلمر ، د . ميشل ، بروس ل . بنيت ، تاريخ التربية البدنية ، ترجمة الدكتور محمد عبدالخالق علام والدكتور محمد محمود فضالي ، دار المعرفة ، القاهرة ، ص ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٦ .

الرياضة عند المسلمين يجد صوراً مشابهة لرياضة الطبلة عند المماليك ، ومن ذلك رياضة « القبق » ، وهي عبارة عن خشبة ينصب في أعلاها جسمٌ أشبه بالقرعة العسلية ، وكان المماليك يجعلون في وسطها طير حمام ، ويسوقون ويرمونها في أيام المواسم والأعياد[1] .

والذي يبدو لي أن رياضة « الطبلة » عند الأندلسيين ورياضة « القبق » عند المماليك هما من الأشكال المتقدمة لرياضة كرة السلة .

ملاحظات ختامية :

رياضة « الطبلة » عند الأندلسيين هي إحدى ألعاب الفروسية ، كان من غاياتها التدرّب على الرماية من أجل الاستعداد للجهاد ، شأنها في ذلك شأن رياضة الفروسية بمختلف أشكالها ، وقد أشار ابن الحاجّ النميري إلى هذه الغاية من رياضة الطبلة وعناية سلطانه بها حيث يقول[2] :

فذلك منه للجهاد تدرُّبٌ سيسقي به الحزْبَ الذي دان بالكُفْرِ

ويقول ابن زمرك إن سلطانه قد كلّف الأدباء وصف هذه الرياضة وغيرها من الألعاب التي جرت في أحد احتفالات السلطان[3] :

لمولىً تولّاه وأحكم رصفه وكلّف أربابَ البلاغةِ وَصْفَهُ

غير أن سلاطين غرناطة كانوا يرون أن وصف هذه الرياضة يليق بشعراء دون شعراء آخرين ، فيحدثنا لسان الدين بن الخطيب أنّ سلطانه نهاه عن الهبوط إلى درجة

---

١ ـ عبدالعزيز ، دكتور نبيل محمد ، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٦ .

٢ ـ انظر المقطوعة رقم (٧) .

٣ ـ انظر المقطوعة رقم (٥) .

وصف المناسبات التي وصف بها لعبة الطبلة ، فعندما أورد قصيدته التي تتضمن وصفاً لهذه اللعبة قال : « وهي آخر الشعر في هذا الغرض ، لخجل السلطان من تنزُّلي إلى ذلك وتنزيهي[1] عنه تجلّة ، أجلّه الله وكرّمه »[2] .

وفي ظني أنه لولا تحرّج السلطان من استمرار ابن الخطيب في وصف هذه الرياضة لربما قدّم لنا ابن الخطيب تفصيلات أكثر عنها . غير أنّ القصائد التي عرضت لهذه الرياضة استطاعت أن تقدّم لنا مجتمعة بعض ملامح هذه الرياضة .

ويلاحظ في جميع المقطوعات التي وصفت هذه الرياضة أنّ أيّاً منها لم يكن مستقلاً منفرداً بوصف هذه الرياضة بل جاءت كلّ منها ضمن قصيدة مطوّلة في وصف جملة ألعاب احتفالية . ولم يستطع أيّ شاعر أن يعطي وصفاً دقيقاً لهذه الرياضة بل انصرف هؤلاء الشعراء إلى المبالغات والتشبيهات المختلفة التي تجعل التمييز بين الحقيقة والخيال أمراً عسيراً ، ولذلك جاءت كلّ مقطوعة من هذه المقطوعات - على حدة - وكأنها لغز . ويلاحظ أيضاً أنّ جميع هذه المقطوعات جاءت متشابهة ومتأثراً بعضها ببعض في الألفاظ والصور والتشبيهات ، مما لا يعطي لأي منها خصوصية بارزة في توضيح صورة هذه الرياضة أو حتى في تمييز أسلوب شاعر عن غيره ، هذا فضلاً عن أن هذه المقطوعات تتسم بالتكلّف والخلّو من الحرارة والعاطفة والطبع كما يلاحظ أن جميع المقطوعات التي تصف هذه الرياضة تنتمي إلى عصر واحد وهو عصر بني الأحمر ولاسيما بعد النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

---

١ – في الإحاطة : وترفيهي ، وربما كانت مصحفة .

٢ – لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٧٩ .

بقي أن أقول إنّ هذه الرياضة ووصف الشعراء الأندلسيين لها تؤكد أن حلم أهل الأندلس باختراق الفضاء لم يبرح الخيال الأندلسي منذ أيام عباس بن فرناس الذي خاطر بمحاولة الطيران في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حتى عصر بني الأحمر حيث يتبارى الشعراء في وصف المسافات التي أوغلت بها الطبلة في مدارج السماء ، وحيث جهز الأندلسيون هذه « الطبلة » بكل ما يمكّنها من اختراق الفضاء لكي[1] :

تمـــدّ لها الجـــوزاءُ كفّ مصافـــحٍ ويدنـــو لها بـــدرُ السماءِ مناجيـــا

---

١ ـ انظر المقطوعة رقم (٣) .

ملحق

المقطوعات الشعرية التي وصفت الطبلة

(١)

يقدّم لسانُ الدين بن الخطيب[١] لإحدى قصائده بقوله : « وقولي في امتداح سلطاني لما احتفل لإعذار ولده ، واستركب الفرسان لمزاملة الهدف الخشبي المتخذ في الجوّ المسمى بالطّبلة .... وهي آخر الشعر في هذا الغرض لخجل السلطان من تنزّلي إلى ذلك ، وترفيهي عنه تجلّة ، أجلّه الله وكرمه لديه :

شَحَطَتْ وفودُ الليل بانَ بـه الوخْطُ وعسـكَرُهُ الزنجيُّ هـمَّ به القبط[٢]

---

١ – هـو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيـب (٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ / ١٣١٣ - ١٣٧٥ م) وزير بني الأحمر في غرناطة وكاتبهم وشاعرهم الذي وصفه إسماعيل بن الأحمر بأنه « كاتب الأرض إلى يوم العرض » . تولّى الكتابة عن السلطان أبي الحجّاج يوسف الأول والسلطان الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر ، وتولى الوزارة لهما ، وعندما خلع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ظل لسانُ الدين معه إلى أن عاد إلى ملكه بعد سنتين من خلعه ، وصار لابن الخطيب شأن عظيم ، حسده له خصومه ، فأوقعوا به لدى السلطان ، فقتله سلطانه في المغرب سنة ٧٧٦ هـ . ولابن الخطيب مؤلفات ورسائل وأشعار زادت على الستين مؤلفاً .

(ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٣٨ - ٦٤٠ ؛ المقري ، نفح الطيب (الأجزاء الخامس والسادس والسابع) ، ابن الأحمر ، إسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤٢ - ٢٩٢ ؛ ابن خلدون ، عبدالرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، دار الكاتب اللبناني ، بيروت ، ودار الكتاب المصري ـ القاهرة ، ١٩٧٩ ص ١٦٧ - ٢٣١) .

٢ – ابـن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٧٩ ؛ المقري ، نفح الطيب ٦/٤٥٩ - ٤٦٠ (وفي نفـح الطيـب : الطلبة) .

إلى أن يصل إلى وصف الطبلة فيقول[1] :

وطاعنةٍ نَحْـــرَ السُّكاكِ[2] أعانهـا ... على الكونِ عرْقٌ واشجٌ ولحيٌ سَبَطُ

تَلَقَّـفُ حيّاتِ العصـيّ إذا هَـوَتْ ... فثعبانُهـا لا يَسـتتمُّ[3] له سَـرْطُ

أزَرْتَ بهـا بحر الهـواء سفينـةً ... على الجو[4] لا الجوديّ كان لها حطُّ

(٢)

قدّم الأمير إسماعيل بن يوسف بن الأحمر في كتابه « البقية والمدرك من كلام ابن زمرك »[5] لإحدى قصائد ابن زمرك[6] بقوله : « ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المختص بعمّينا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله عليهما ، وأجاد في وصف الجُنْد والجُرْد والطّلبة وغرائب الأوضاع[7] :

---

١ ـ ابن الخطيب ، الإحاطة ٤/٤٨٢ ؛ المقري ، نفح الطيب ٦/٤٦٢ .

٢ ـ الجَو (لسان العرب) .

٣ ـ النفح : يستقيم .

٤ ـ الإحاطة : الجود .

٥ ـ ما زال هذا الكتاب في عداد الكتب المفقودة ، وقد نقل المقري في أزهار الرياض أجزاء كبيرة منه .

٦ ـ أبـــو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد الصريحي ، ولد بغرناطة وتعلّم على شيوخها ومنهم ابن الخطيب سنة ٧٣٣ هـ ، وتولّى الكتابة لسلاطين غرناطة ولاسيّما محمد الخامس الغني بالله المتوفى سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م ، وابنه يوسف الثاني ، وكتب عن السلطان أبي سالم المريني في المغرب ، برع في النظم وخاصة في شعر الأعياد والمناسبات ، ويقال إنه وشى بأستاذه لسان الدين بن الخطيب ، وتوفي ابن زمرك قتيلاً بعد سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م (انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ٢/٣٠٠ ـ ٣١٤ ؛ الكتيبة الكامنة ٢٨٢ ـ ٢٨٨ ؛ ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ٣٢٦ ـ ٣٢٩ ؛ المقري ، نفح الطيب ٦/٧٥ ـ ٨٠ ، ٧/١٤٥ ـ ٢٨٠ ؛ أزهار الرياض ٢/٧ ـ ٢٠٦ ؛ وخصه الدكتور أحمد سليم الحمصي بكتاب عنوانه : ابن زمرك الغرناطي سيرته وأدبه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ودار الإيمان ـ طرابلس لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ ؛ وخصه إميليو غارسيا غومس بفصل خاص من كتابه مع شعراء الأندلس والمتنبي بعنـــوان : ابن زمرك شاعر الحمراء ، ص ٢١٩ ـ ٣٤١) .

٧ ـ المقري ، أزهار الرياض ٢/٦٠ ؛ نفح الطيب ٧/١٨٤ .

أللمحـــةِ مـــن بـــارقٍ متبسّـــمِ أرســـلْتَهُ دمعـــاً تضـــرَّجَ بالـــدمِ

ويقول في وصف « الطّلبة »[1] :

ومســـافر في الجـــوّ تحسبُ أنـــه يـــرقى إلى أوج الســـماءِ بسُـــلَّمِ

رام اســـتراقَ السَّـــمْع وهو ممنَّـــعٌ فأصيـــبَ من قُضْبِ العصيّ بأسهمِ

رَجَمَتْهُ من شُهُبِ النصَال حواصبٌ[2] لولا تعرّضُـــهُ لهـــا لـــم يُرْجَـــمِ

(٣)

يقول ابن زمرك من قصيدة مطوّلة في وصف بعض الاحتفالات ، مطلعها[3] :

ســـلْ الأفق بالزُّهْرِ الكواكبِ حاليا فإنّـــي قـــد أودعتُهُ شـــرْحَ حاليـــا

يقول منها في وصف الطّبلة[4] :

وطامحـــةٍ في الجوّ غيـــر مُطالـــةٍ يـــردُّ مداها الطرْفَ أحْسَرَ عانيـــا

تمدُّ لهـــا الجوزاءُ كـــفَّ مُصافـــحٍ[5] ويدنـــو لهـــا بدْرُ الســـماءِ مُناجيـــا

ولا عَجَبٌ أنْ فاتت الشُّهْبَ بالعُـلا وأنْ جـــاوَزَتْ منها المدى المتناهيـــا

فبيْـــنَ يديْ مشـــواك قامت لخدمـــةٍ وَمَـــنْ خَدَمَ الأعلى استفادَ المعاليـــا

وشـــاهدُ ذا أنّي ببابـــك واقـــفٌ وقد حَسَـــدَتْ زُهْرَ النجوم مكانيـــا

---

١ ـ المقري ، أزهار الرياض ٢/٦٥ ؛ نفح الطيب ٧/١٨٧ .

٢ ـ يذكر محقق النفح أن هذه الكلمة وردت في إحدى النسخ « قواضب » ويعلّق قائلاً : « ولها وجه، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواضب السيوف وهي ترجمه أي تتعرض له » .

٣ ـ المقرى ، أزهار الرياض ٢/٦٥ ؛ نفح الطيب ٧/١٨٨ .

٤ ـ المقري ، أزهار الرياض ٢/٧٢ ؛ نفح الطيب ٧/١٩٣ ـ ١٩٤ .

٥ ـ في النفح : مُسارع .

وقَدْ أُرْضعَتْ ثديَ الغمائم قبلها ... بحجر رياض كنَّ فيه نواشيا

فلما أُبينَتْ عن قرارة أصلها ... أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا

وعدَّتْ لقاءَ السُّحْبِ عيداً وموسماً ... لذاك اغتدتْ بالزمْر تُلهي الغواديا

فأضحكت البرْقَ الطروبَ خلالها ... وبات[1] لأكواس الدراريَ مُعاطيا

رأتْ نفسها طالت فظنَّتْ بأنّها ... تفوتُ على رغم اللحاق المراميا

فخفَّتْ إليها الذابلاتُ كأنّها ... طيورٌ إلى وكر أطلْنَ تهاويا

حكت شَبَهاً للنحل والنحلُ حوله ... عصيٌّ إلى مثواه تهوي عواليا

فمن مُثْبِتٍ منها الرمّية مُدْرِكٍ ... ومِنْ طائش في الجّو حلّقَ وانيا

وحصنٍ منيعٍ في ذراه قد ارتقى ... فأبْعَدَ في الجّو الفضاءِ المراقيا

كأنَّ بروجَ الأفق غارت وقد رأتْ ... بروجَ قصور شدتهنّ سواميا

فأنشأتْ بُرْجاً صاعداً متنزّلاً ... يكون رسولاً بينهنَّ مُداريا

تطوَّرَ حالاتٍ أتى في ضروبها ... بأنواع حلْي تستفزُّ الغوانيا

فحِجْلٌ برجليْها ، وشاحٌ بخصرها ... وتاجٌ إذا ما حلَّ منها الأعاليا

وما هو إلا طيْرُ سَعْدٍ بذِرْوةٍ ... غدا زاجراً من أشهب الصُّبْح بازيا

---

١ ـ في النفح : وباتت .

(٤)

من قصيدة لابن زمرك في وصف إحدى الاحتفالات التي في عهد السلطان يوسف الثاني ، ومطلعها[١] :

نجـومٌ أمدَّتْهـا بـدورٌ كوامِـلُ ... لهـا النور من شمس الخلافةِ شاملُ

ومنها (في وصف الطلبة)[٢] :

وصاعـدةٌ في الجّو مـلء عنانهـا ... تُسـامِتُ أعْنانَ السَّـما وتُطـاولُ

طلعْتَ تحيّي البدْرَ منهـا بصعدةٍ[٣] ... عليْها لواءُ الصُّبْح في الأفْق ماثِـلُ

وقد أعْرَبَتْ بالرفع عن طيبِ فخرها ... متى نصبتْهـا في الفضاء العَوامِـلُ

يمـدُّ لها الكفُّ الخضيبُ بسـاعدٍ ... ويشكي السماكَ الأعْزَلَ الرمح عامِلُ

وتنتابُهـا هيـف العصـيّ كأنّهـا ... سـهامٌ وعـاها للرميّـةِ نابـلُ

تراوغهـا طـوْراً وطـوْراً تضيفُها ... فسـام لأعلى مرتقـاها ونـازلُ

وبالأمْس كانت بعْضَ أغصانِ دَوْحِها ... فنقّلهـا عنها على الرغـم ناقِـلُ

فحنَّـتْ إلى أوطانها وتسـابقَتْ ... تعـاودُ مسـراها بهـا وتواصِـلُ

وبُـرْجٌ مُنيفٌ في ذراها قـد ارتقى ... لتُرْفَـعَ منـه للبـروج الرسـائِلُ

تطـوَّرَ حـالاتٍ أتى في جميعهـا ... بأوضـاع حلْيٍ وصفُـه متغافِـلُ

فتاجٌ بأعلاها ، وشاحٌ بخصـرها ... وفي السـاقِ منه قد أديرت خلاخِلُ

ومـا هـو إلا قائـمٌ مـدَّ مُلْكَـهُ ... إلى اللّـه في البقيـا لما صدَّ سـائلُ

---

١ ـ المقّري ، أزهار الرياض ٢/٧٤ .

٢ ـ نفسه ٢/٧٧ .

٣ ـ الصَّعْدة : الرمح إذا كانت عصاه قد نبتت مستوية ولم تحتج إلى تثقيف (ابن هذيل ، حلية الفرسان ص ٢٠٣) .

(٥)

يقول ابن زمرك في تخميس له يصف فيه صنيعاً لبعض أمراء بني الأحمر ، مطلعه[١] :

أرقْـتُ لبرْقٍ مثـل جفني سـاهرا ينظّـم من قطْـر الغمام جواهـرا
فأضحـك زهرُ الروض منه أزاهـرا وصبـح حكى وجه الخليفة باهـرا
تجسَّـم من نور الهدى وتجسّـدا

ويقول منه في وصف الطلبة[٢] :

وذاهبـةٍ في الجّـو ملء عنانهـا وقـد لفّعَتْها السُّحْبُ بُرْدَ عَنانِهـا
يفـوتُ ارتدادَ الطرْفِ لمحُ عَيانهـا وختَّمَـتِ الجـوزاءُ سَبْطَ بنانِهـا
وصاغـتْ لها حلْيُ النجوم مُقَيَّدا
أراها عمـودُ الصُّبْح عُلْوَ المصاعِـدِ وأوهمهـا قربَ المـدى المتباعِـدِ
ففاتتْهُ سـبقاً في مجـال الرواعِـدِ وأتحفـتِ الكفُّ الخضيبَ بسـاعِدِ
فطوَّقـتِ الزَّهْرَ النجـومَ بها يـدا
وقـد قذفَتْهـا للعصيّ حواصِـبُ قد انتشَـرَتْ في الجّو منها ذوائبُ
تزاور منهـا في الفضاء حبائـبُ فبينهمـا من قبـل ذاكَ مَنَاسِـبُ
لأنهمـا في الـروض قبلُ تولّـدا

---

١ ـ المقّري ، أزهار الرياض ٢/٨١ ـ ٨٢ ؛ نفح الطيب ٧/١٩٥ ـ ١٩٦ .

٢ ـ المقّري ، أزهار الرياض ٢/٨٩ ـ ٩٠ ؛ نفح الطيب ٧/٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

بنـاتٌ لأمٍ قد حيـن بِرَوْحـها[1] دعاها الهوى من بعد كتْم لبوْحِـها
فأقلامُهـا تهـوي لخـطٍ بلوْحِهـا فبالأمْس كانت بعضَ أغصانِ دوْحِها
فعـادت إليها اليومَ من بعْدُ عُـودًا

ويا رُبَّ حِصْنٍ في ذراها قد اعتلى أنارت بروجَ الأفق في مَظْهَرِ العُلا
بـروجُ قصـورٍ شِـدتَها متطـوّلا فأنشـأتَ برجـاً صاعـداً متنـزّلا
يكـون رسـولاً بينهـا متـردّدا

وهـل هي إلا هالـةٌ حول بدرهـا يصـوغ لها حَلْيـاً يليق بنحرهـا
تطـوّرُ أنواعـاً تشيد بفخرهـا فحجـلٌ برجليها وشاحٌ بخصرها
وتـاجٌ بأعلى رأسـها قد تنضّـدا

أرادَ اسـتراقَ السَّمْع وهـو ممنّـعُ فقـام بأذيـال الـدجى يتلفَّـعُ
وأصـغى لأخبـار السَّما يتسـمَّعُ فأتبعـه منهـا ذوابـلُ شـرَّعُ
لتقذفـه بالرجْـم[2] مثنىً وموْحَدا

ومـا هـو إلا قائـمٌ مـدَّ كفَّـهُ ليسـألَ منْ ربّ السموات لُطْفَـهُ
لمـولى تـولاه وأحكـم رَصْفَـهُ وكلَّـفَ أربابَ البلاغـةِ وَصْفَـهُ
وأكـرمَ منـه القانـتَ المتهجّـدا

ملاقي ركْـبٍ من وفـودِ النواسِـمِ مقبّـل ثغـرٍ للبـروقِ البواسِـمِ
مختّـم كـفٍّ بالنجـوم العواتـمِ مبلّغ قصـدٍ من حضور المواسِـمِ
تجـدّده مهمـا صنيـعٌ تجـدّدا

---

١ – في النفح : قد حُبِن لروحها .
٢ – في النفح : بالرعب .

(٦)

أنشد أبو الحسين بن فركون[١] السلطان يوسف الثالث قصيدة في سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥م بمناسبة ولادة ابن للسلطان وإعذار أخوين لذلك المولود ، ومطلع القصيدة[٢] :

سل البان عنها أين بانت ركابها ... ولمْ رُفعَتْ فوقَ المطيّ قبابُها

ومن أبيات هذه القصيدة في وصف رياضة الطبلة[٣] :

وصاعدةٍ في الجّو ألقت ذيولها ... فراقَ بآفاق السحابِ انسحابُها

تحنُّ إليها الذابلاتُ فترتمي ... فروعاً يرينا الأصل كيف اجتذابُها

إذا ثبتت راقَ العيونَ ثباتُها ... أو انقلبت راقَ النفوسَ انقلابُها

كأنّ طيوراً في ذرى الجوّ حوّمَتْ ... وثابتْ لأوكارٍ بهنّ وثابُها

تقيمُ إذا لاقى الأمانَ ارتياعُها ... ورتّبما عنها ثناها ارتيابُها

إذا أخطأ الخطيُّ يهديه خطُّها ... وما كان يأبى أنْ يُصيبَ صوابُها

إذا اعتمدتْ قوسُ السماءِ عمودَها ... لرمْيٍ فسَهْمُ السَّعْدِ يدنيه قابُها

---

١ ـ أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي ، أصله من المرّية ، وانتقل جده إلى غرناطة ، كان أبوه قاضياً فقيهاً وأديباً شاعراً . أدرك أبو الحسين مكانة كبيرة في عهد السلطان يوسف الثالث ملك غرناطة ؛ فكان كاتب سره وشاعر دولته ، ولد أبو الحسين حوالي سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، وارتسم في الكتابة سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، وتدرّج في المناصب حتى وفاة يوسف الثالث سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م . ولم تعرف تاريخ وفاة ابن فركون . (انظر تقديم الدكتور محمد بن شريفة لكتاب مظهر النور من جمع أبي الحسين بن فركون ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩١م ص ٥ ـ ١٢ ؛ وتقديم الدكتور محمد شريفة لديوان ابن فركون (ص ٧ ـ ١٩) .

٢ ـ ابن فركون ، أبو الحسين بن أحمد بن سليمان القرشي ، ديوان ابن فركون ، تقديم وتعليق محمد بن شريفة ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ص (٣٣٨ ـ ٣٣٩) .

٣ ـ نفسه ص ٣٤٣ .

(٧)

من قصيدة لابن الحاجّ النميري[١] ، مطلعها[٢] :

أتتك وقد هزَّ الدجى مضجع الفجرِ ... بكأسين من ريقٍ بَرُودٍ ومن خَمْرِ

يصفُ جانباً من إحدى احتفالات الغني بالله محمد الخامس ، قائلاً[٣] :

وقد صعدت في الجوّ آيةُ طبلةٍ ... تحاكي عمودَ الفجْر أسْفَرَ للسَّفْرِ

وأنحوْا عليها بالعصيّ كأنّها ... بُروقٌ ولكنْ بالبروقِ غدت تُزْري

من الطبلاتِ اللاءِ ما زال كسرُها ... لدى البطل الأحمى يعدُّ من الجبْرِ

وضاربها يومَ الوفودِ عقوقه ... وإنْ كان لا يخفى يُعَدُّ من البرِّ

فذلك منه للجهاد تدرّبٌ ... سيسقي به الحزبَ الذي دانَ بالكفرِ

وقد جال نقعُ الخيْل في جنباتِها ... كما جال في الأفكار معنىً من الشعرِ

---

١ – أبو إسحق إبراهيم بن عبدالله بن محمد النميري ، يعرف بابن الحاجّ ، من أهل غرناطة ، ولد بها سنة ٧١٣هـ /١٣١٣م ، شاعر وكاتب له عدة مؤلفات في الأدب والبلاغة والرحلات والمذاهب وعلم الحديث والأحكام ، وله رحلة سمّاها « فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب » توجّه رسولاً عن سلطانه الغني بالله إلى تلمسان ، فاعترض العدو السفينة التي كان بها ، فوقع أسيراً ، فافتداه سلطانه بسبعة آلاف من العين بعد أيام قلائل من أسره ، وذلك سنة ٧٦٨هـ /١٣٦٦م . وكان قد ارتسم في كتاب الإنشاء سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م وخدم في بلاط أبي عنان المريني إلى حين وفاته .

(انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ٣٤٢/١ - ٣٦٣ ؛ الكتيبة الكامنة ٢٦٠ - ٢٦٩ ؛ ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ٣١٣ - ٣١٨ ؛ المقّري ، نفح الطيب ١٠٨/٧ - ١٢١ ؛ وانظر الدراسة التي قدم بها الدكتور محمد بن شقرون لكتاب فيض العباب لأبن الحاج ص ١ - ١٠٩ ، وقد نشر الكتاب في الرباط سنة ١٩٨٤ م) .

٢ – ابن الحاج النميري ، قرائن القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبدالله بن نصر ، مخطوط رقم Or. 5670 في المتحف البريطاني ، ص ٢٣ .

٣ – المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥ .

(٨)

من قصيدة لعبدالله بن لسان الدين بن الخطيب[١] في إعذار ابن للسلطان محمد ابن يوسف بن نصر الغنيّ بالله محمد الخامس ، مطلعها[٢] :

أثرْهـا عزمـةٌ تنفـي الركابـا ... وإنْ دميَـتْ لهـا العيْنُ انسـكابا

يقول في بعض أبياتها في وصف الطبلة[٣] :

وساقيـةِ العمـادِ إذا أطلَّـتْ ... إلـى الأدواح تنسـابُ انسـيابا

تحـومُ بها العصـيُّ فراشَ ليـل ... تـروم بسمعِـهِ منـه اقترابـا

تحـفُّ بهـا خيـولُ القـوم منّـا ... فَتُرْسِـلُ نحوها الجـرْدَ العِرابـا

عجائـبُ أبدعَـتْ علـياك فيهـا ... ومثلـك يبـدعُ الأمْـرَ العجابـا

---

١ ـ ولـد بغرناطة سنة ٧٤٣هـ ، وحدّث عن أبيه لسان الدين بن الخطيب ، وعن ابن الجيّاب ، وكتب بالعدوتين للملوك الحضرتين (النصرية والمرينية) وتولّى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبّر الدولة ، وكان شاعراً ، وقرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني والخطيب أبي سعيد فرج بن لبّ التغلبي (انظر : لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة (نصوص جديدة لم تنشر) ، تحقيق : د . عبدالسلام بن شقور ، تطوان ، المغرب ، ١٩٨٨ ، ص ١٢٣ ـ ١٣٢ ، المقّري ، نفح الطيب ٢٨٩/٧ ـ ٢٩٩) .

٢ ـ ابن الخطيب ، الإحاطة (نصوص جديدة لم تنشر) ص ١٣٠ ؛ المقّري ، نفح الطيب ٢٩٧/٧ .

٣ ـ المصدران السابقان .